

# منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

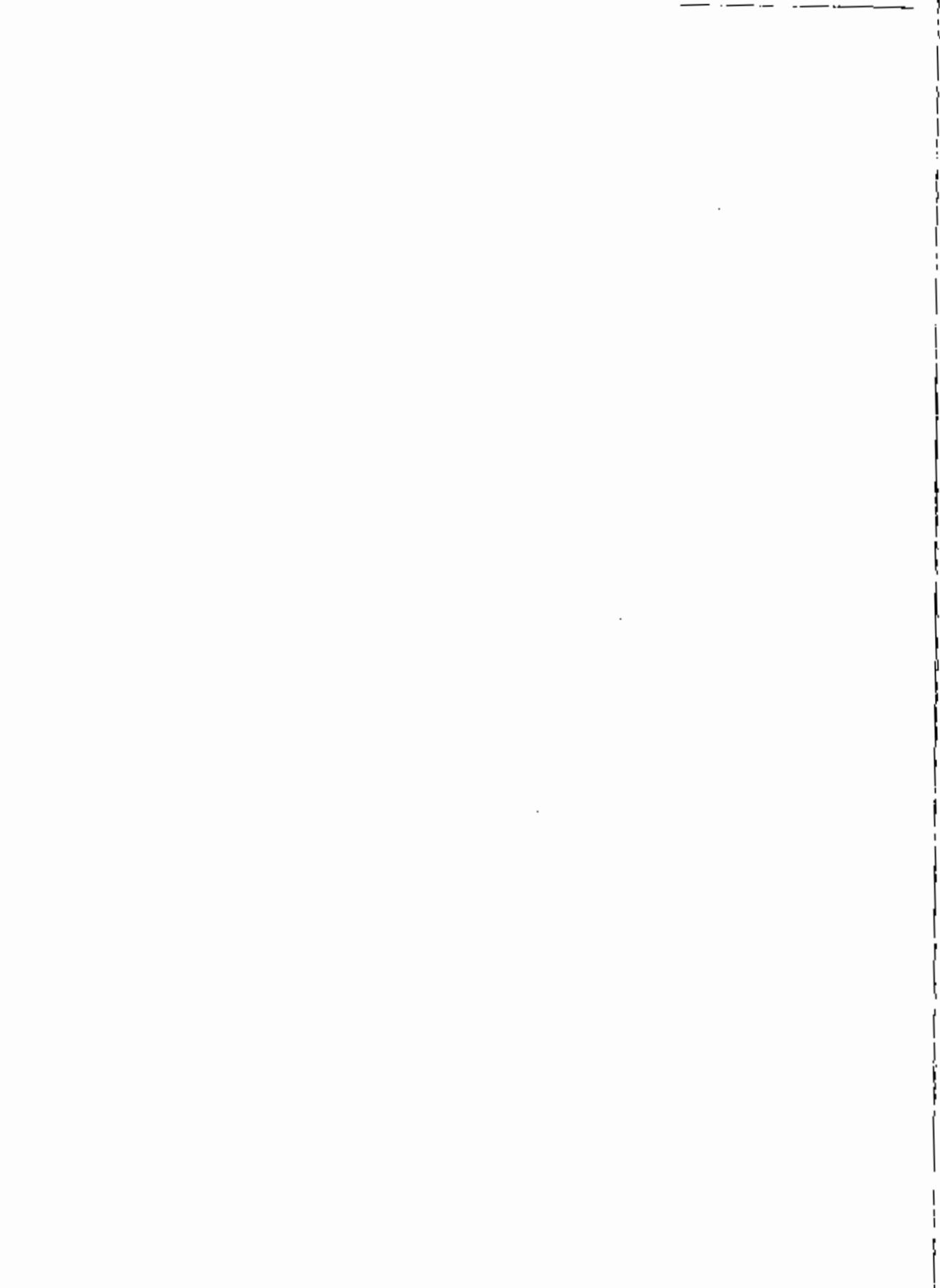
إعداد

الدكتور / السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة والآثار الإسلامى المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية



## منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

كان منار الإسكندرية منذ إنشائه فى عهد بطليموس فىلادلفوس (٢٨٠ ق.م. - ٢٧٩ ق.م.) أحد المعالم البارزة فى العمران السكندري بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شددت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه فى المصادر المختلفة : اليونانية واللاتينية والعربية، وقلدت صورته فى منارات أخرى ومن بينها منار قنادس الذى كانت صورة مصغرة منه<sup>(١)</sup>، ورسمت صورته بالفسيقساء فى كنيسة منان ماركو بالبندقية، وأصبح موضوعا وصفيا لدى كثير من الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى لاسيما المغاربة منهم والأندلسيون، تباروا فى وصفه، وأسبقوا عليه من فيض كتاباتهم ما جعله بحث أسطورة من الأساطير ومعجزة من معجزات العالم فممن وصفه من الجغرافيين : اليعقوبى، وابن الفقيه الهمذانى، والمسعودى وابن رسته، وابن حوقل، والبكرى، وياقوت الحموى، والحميرى، والمقرئى، والسيوطى. ومن الرحالة : الهروى، وابن جبي، وبنيامين التطيلى، والعبدى، وابن سعيد المغربى، وابن بطوطة، وابن رشيد السبى، والبلوى، ومن الباحثين الحديثين الفريد بئر،

(١) الزهرى، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صائق، دمشق، ١٩٦٨، ص ٩٠، وانظر : السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الاسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد، مدريد، ١٩٨٦، عدد ٢٢، ص ١٨٤ وسحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة قايش ودورها فى التاريخ السياسى والعصرى للأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤٠، ٩.

وتيرش، وبريشيا. وقد اهتم تيرش بجمع معظم ما كتب عن المنار في المصادر المختلفة لاسيما العربية منها، وانتهى برسم صورة للمنار ظهر فيها كبرج حجرى ضخّم يبلغ ارتفاعه الكلى نحو ١٢٤ مترا، ويتألف من طابق رئيسى مربع الشكل تميل جدرانه إلى الداخل كلما ارتفعت، ويبلغ ارتفاعه ٦٠ مترا، وكان يضم بداخله عددا ضخما من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة، ويعلوه طابق مئمن الشكل ارتفاعه نحو ثلاثين مترا، ينتهى من أعلى بشرفة، ويعلوه طابق ثالث أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت، تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران المشتعلة بالمواقد بأعلى المنار لهداية السفن الضالة فى البحر، ويتوج القبة تمثال ضخّم من البرونز، يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون، وكان يتخلل جوف المنار طريق صاعد يتسع لفارسين أو ثلاثة، يرقى الراقون من خلاله إلى أعلى المنار، «لايكاد الراقى يعلم فيه هل هو راق أو ماش»<sup>(١)</sup>.

وظل منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى موضع اهتمام كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين من القاصدين لأداء فريضة الحج من أهل المغرب والأندلس أو من طلاب العلم الذى يسعون إلى السماع على شيوخ العصر فى مختلف مراكز العلم بالمشرق الإسلامى أو التجار الذين ينتقلون فى أنحاء المشرق للتكسب بالتجارة، وواصل المنار أداء وظيفته التى أنشئ من أجلها وهى هداية السفن الضالة فى البحر إلى الأمان، ولكن

(١) مجهول، كتاب الاستبصار فى عجائب الأنصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ٩٦.

تعرض لكثير من الأضرار التي سببتها الزلازل المتعاقبة، فقد تهدم طابقه العلوى فى سنة ١٨٠ هـ نتيجة زلزال عنيف تسبب فى سقوط رأس المنار، وظل كذلك نحو ٨٠ عاما بون ترميم إلى أن تولى أحمد بن طولون ترميمه بأن أقام بأعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بعد فترة قصيرة من إقامتها بفعل الرياح العاتية والعواصف<sup>(١)</sup>، كما تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلي البحر فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون، فجدد بناؤها<sup>(٢)</sup>. ويذكر المسعودى أن ما يقرب من ثلاثين ذراعاً من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث فى أيامه فى شهر رمضان من سنة ٢٤٤ هـ<sup>(٣)</sup>، وقدّر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس أن يقوم ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته الرابعة لثغر الإسكندرية فى سنة ٦٧٢ هـ، فرتب البناء على المشى الذى يدور حول المنار من أدناه عند المطلع<sup>(٤)</sup>، وأقام مسجداً بأعلى المنار فى الموضع الذى كانت تشغله القبة الطولونية<sup>(٥)</sup>.

كانت أعمال الترميم والإصلاح التى أمر الظاهر بيبرس بتنفيذها ضرورية للحفاظ على سلامة المنار، فقد ذكر السيوطى أن وجه المنار البحرى

- 
- (١) جلال الدين السيوطى، كتاب حسن المعاينة فى أخبار مصر والقاهرة، مصر، ٢٢٦ هـ، ص ١٤٧ - نفس الدين المقرئى، كتاب المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، ج ١، ص ١٥٧ وما يليها. (والنص الذى اعتمد عليه السيوطى منقول من كتاب مباحج الفكر).
- (٢) المسعودى، كتاب التنبيه والإشراف، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٨.
- (٣) المسعودى، المصدر السابق.
- (٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق، مجلد ٧، بيروت، ١٩٣٨، ص ٢٥ - المقرئى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦١٦.
- (٥) المقرئى، المواظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٧٧.

كان قد تداعى، كما تداعى الرصيف الذى كان يتقدمه من جهة البحر، وكادا يتهاويان .. ومع ذلك فإن هذه الإصلاحات التى أجريت على المنار لم تجده نفعاً بعد زلزال ثالث تعرضت له مصر فى سنة ٧٠٢ هـ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وأحدث أضراراً جسيمة بعمران الإسكندرية، وكان من العنف بحيث تسبب فى إنهيار قطاع من السور البحرى يشتمل على ٤٦ بدنة و ١٧ برجاً، وأتلف مد البحر قماش التجار بالقصارين<sup>(١)</sup>، كما تسبب فى طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية<sup>(٢)</sup>، وأدى تلاطم الأمواج واصطدامها بالجدار البحرى للمنار إلى سقوطه<sup>(٣)</sup>، فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى العام التالى ٧٠٣ هـ. ويبدو أن إصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تقده أعمال الترميم، فلم يلبث أن أنهار قسم من الجانب البحرى من المنار بعد سنوات قليلة، ولم يحاول السلطان الناصر محمد بن قلاوون إصلاحه مرة أخرى، ربما لعداوة الأضرار التى توتيت على الزلزال وتساقط أجزاء كثيرة من الترميمات، ويبدو أنه شرع فى إقامة منار مثله بإزائه<sup>(٤)</sup>، فعاقه الموت عن إتمامه<sup>(٥)</sup>. وقد شاهد الرحالة المغربى ابن بطوطة

(١) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، صيدا، ١٦٥٩، ص ٦٠.

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أن البحر طلع إلى نصف البلد وأخذ الحمال والرجال وغرقت المراكب (السيوطى، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٧٨).

(٣) كان تأثير الزلزال على أثار بالغاء فقد ذكر المقرئى فى السلوك أن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة (السلوك، ج ١، قسم ٣، ص ٩٤٣).

(٤) ذكر النويرى السكندري أن صلاح الدين خليل بن عرام والى الإسكندرية فى سلطنة الأشرف شعبان أقام حصناً دائراً حول أساس هذا المنار الجديد الذى لم يكن العمل قد استكمل فيه وركب لهذا الحصن باباً ضخماً اقتلعه القبارصة أثناء غزوتهم للإسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المساء تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة دار صادر - بيروت، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٦.

جانبا مهدهما من المنار فى أثناء زيارته الأولى للإسكندرية سنة ٧٢٥هـ ثم شاهده عند زيارته الثانية لها فى سنة ٧٥٠هـ وقد «استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه»<sup>(١)</sup>. ولم يبق من المنار فى زمن النويرى السكندرى (سنة ٧٧٥هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التى ظلت قائمة حتى أيام المقرئى<sup>(٢)</sup>. وفى عهد الأشرف قايتباى استغل هذه الأسس الباقية من المنار لبناء قلعته المشهورة الموسومة باسمه حماية للإسكندرية من أى غزو بحرى يتعرض لها من البحر خاصة بعد أن ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فتم بناء القلعة ٨٨٤هـ<sup>(٣)</sup>.

كان منار الإسكندرية بحق هداية للقادمين إليها من البحر، فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التى يجتازها المسافرون فى البحر، إذ كان ارتفاعه الشاهق مرشدا لقادة السفن المقبلة من بعيد والمتجهة الي ثغر الإسكندرية وعلى مسافة تزيد على سبعين ميلا إلى بر الأمان<sup>(٤)</sup>، ذلك أن أرض الإسكندرية تخلو من المرتفعات، وظهور المنار للسفن القادمة سواء

(١) ابن بطوطة، نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢) المقرئى، القلعة، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤٥٨.

(٤) ذكر بنيامين التطيلي أن منار الإسكندرية كان فى زمنه ما يزال يهدى السفن القادمة والرائحة، ويشاهد عل بعد مائة ميل نهاراً، وكان يتبعث منه أثناء الليل ضوء ساطع يهتدى به الملاحون، وينكر أركولف المتولى سنة ٦٨٠هـ أن المسافرين فى البحر كانوا يشاهدون المنار من مسافات بعيدة، وكان يشتغل فيه بعض الأفراد، يقومون بإشعال المشاعل التى كانت توشد الملاحين إلى البر، ويريهن المنخل إلى الميناء. وقد أشار اليعاقبة إلى هذه المواقيد ونكر أن على المنارة مواقيد توجد فيها النيران، إذا نظر النواظير إلى مراكب فى البحر إلى مسافات بعيدة.

أثناء النهار بارتفاعه الشاهق، أو أثناء الليل بالأضواء التي ترسلها المواقد بأعلاه، كان يعين الملاحين على الوصول إلى بر الإسكندرية. وكثيراً ما أنقذ منار الإسكندرية في العصر الإسلامي سفناً كانت قد ضلت طريقها إلى الثغر، وتلاعبت بها العواصف والأنواء، وعرضتها لفرق محتوم، ولكن رؤية ركابها وملاحيها للمنار كان ينقذها من هذا المصير.

وبهمني أن أعرض رؤية بعض الرحالة المغاربة للمنار، فاخترت منهم رحالتين وصلا إلى الثغر السكندري عن طريق البحر، أولهما أندلسي هو أبو الحسن محمد بن أحمد البناسي المعروف بابن جبيرة، الذي زار الإسكندرية في عهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب<sup>(١)</sup>، والثاني مغربي من أصل أندلسي غرناطي هو أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي الذي رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في ١٨ صفر سنة ٧٣٦ هـ وأبحر من تونس إلى الإسكندرية وشاهد المنار السكندري قبل انهياره تماماً بسنوات معدودة، وقد غير كل من الرحالتين بصدق عن حالة اليأس والقنوط من النجاة التي كانت تسيطر على ركاب سفينتهما وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك، التي أن ظهر منار الإسكندرية، فنزل خبر ظهوره برداً وسلاماً عليهم، واستشعروا عند رؤيتهم له علي بعده بالأمان، ويشهد بذلك الرحالة الأندلسي ابن جبيرة في قوله: «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (أي الإسكندرية) المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية

(١) سجل ابن جبيرة ملاحظاته عن المنار والنور الذي يقوم به في رحلته الأولى إلى المشرق فيما بين عامي ٥٧٨هـ، ٥٨١ هـ (السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب الإسكندرية، ١٩٨٧ ص ٢٢٠ وما يليها).

للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً<sup>(١)</sup>.

ويقول في موضع آخر عند وصوله إلى الإسكندرية في رحلته الأولى: «وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور (شهر مارس سنة ٥٧٨ هـ) أطلع الله علينا البشري بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً والحمد لله على ذلك حمداً يقتضى المزيد من فضله، وكريم صنعه»<sup>(٢)</sup>.

كذلك يشهد الرحالة المغربي الأندلسي خالد بن عيسى البلدي في رحلته إلى المشرق الإسلامي في سنة ٧٢٦ هـ الموسومة بتاج الفرق في تحلية علماء المشرق بدور منار الإسكندرية في هداية السفن إلى بر الأمان، وذلك بعد صدوره من قبرص في طريقه إلى الإسكندرية، يصور البلوي حالة اليأس والقنوط التي استولت على ركاب سفينته، وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك؛ إلى ظهر منار الإسكندرية فاستشعر المسافرون عند رؤيته بالأمان، وفي ذلك يقوم البلوي: «فما انفصلنا عنها (يقصد جزيرة قبرص) إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان يبقى لهم من الماء المعد للشرب، فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رض ضلوعى، ولا قض دموعى إلا أطفال يضطربون بالبكاء، ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجرع

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وإيام رايت، لبنان، ١٩٠٧، ص ٤١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٨.

بعضهم من ماء البحر، فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، فتمكن اليأس، وعظم اليأس، وسقط في أيدي الناس فضجوا بالدعاء ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التي كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن، فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا الالتجاء إلى الله عز وجل، وأتوسل إليه بكتابه وبرسوله، فصلينا العشاء الأخيرة، وقسمت عليهم القرآن مجزءا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك، فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ونبيه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكانوا أن يقضى عليهم ذلك الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما . . . باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى في النفوس، وأوقع في القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلنت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت :

بشراكم لاح المنار الأسعد . . . ودنا على اليأس المرام الأبعد  
وتنفس الكرب الذي كنا به . . . في حالة البلوى نقوم ونقعد  
واقتر من إسكندرية ثغرها . . . الرضاح فهو منظم ومنضد

... وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الأبدين»<sup>(١)</sup>

لم يكن غريبا أن ترسخ صورة منار الإسكندرية في مخيلة المسافرين بحرا من أهل المغرب والاندلس إلى الإسكندرية، وكان من بينهم تجار وصناع وعرفاء بناء، ففيه يتمثل طوق النجاة من الفرق أو الهلاك، وكان طبيعيا أن يصبح منار الإسكندرية أنموذجا صارخا قلدا صورته التي ارستموها في مخيلتهم سواء من حيث المظهر الخارجي العام بأبراجه الثلاثة المتراكبة، كما يتمثل في صومعتي جامع القيروان وجامع سفاقس، أو من حيث تكوينه الداخلى كما هو الحال في الصوامع التوأم الثلاثة من عصر الموحدين لجامع الكتبية بمراكش، وجامع القصبية الكبير بإشبيلية، وجامع حسان بالرباط : ففي هذه الصوامع الثلاثة يرتقى الراقون إلى أعاليها عبر طريق صاعد يدور حول النواة الداخلية التى تشغلها غرف متراكبة الواحدة فوق الأخرى على غرار ما كان يحتويه منار الإسكندرية مع الفارق الكبير فى عدد غرف هذا المنار. وقد وصف المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى الذى كان معاصرا للموحدين صومعة جامع حسان بالرباط، فذكر أنها «فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيها بغير درج، تصعد النواب بالطين والأجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها»<sup>(٢)</sup>.

وتتفق كل من صوامع الرباط ومراكش وإشبيلية الثلاثة - رغم

(١) البلوى، تاج الفرق فى تطية طعام الشرق، ج ١، ص ١٦٩.

(٢) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العيسى الطمى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

اختلاف مواد البناء - من حيث التخطيط الداخلي، حيث يدور حول النواة المركزية المربعة التي تشغل قلب الصومعة وتضم غرفاً مقببة متراكبة، طريق صاعد أكثر اتساعاً في صومعة جامع حسان بالرباط عنه في صومعة جامع إشبيلية، كما تتفق في التشكيلات الزخرفية القائمة على شبكات المعينات المنبثقة من عقود مفصصة أو شعبانية الشكل، ويتمثل الاختلاف بين هذه الصوامع الثلاثة بالإضافة إلى مواد البناء، في عدد الغرف المتراكبة بكل منها، وفي أن صومعة جامع إشبيلية بزخارفها الرأسية ورشاققتها توحى بالصعودية بخلاف الصومعتين المغربيتين، وفي طول قاعدة كل منها<sup>(١)</sup>.

ومن الواضح أن اشتراك الصوامع الثلاثة في الطريق الصاعد يؤكد أن عرفاء البناء الموحدين الذين أسهموا في بناء هذه الصوامع ومنهم على الغماري وأحمد بن ياسه وأبو داود جلداسن أمثلوا منار الإسكندرية الذي كان مصدر الإلهام في استخدامهم للطريق الداخلي الصاعد بدلاً من الدرج وفي ضخامة بنيان هذه الصوامع وارتفاعها الكبير وفي الغرف الموزعة في النواة المركزية، وهذا يفسر في حد ذاته أن هذه الصوامع كانت في نفس الوقت مآذن لمساجدها الجامعة ومنازل للهداية إلى المدن التي أقيمت فيها، يراها المسافرون من البركما يرونها من البحر بالنسبة لمنارة جامع حسان.

أ.د. السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة والآثار الإسلامى المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

---

(١) تتخذ قاعدة صومعة جامع إشبيلية شكل مربع طول كل جانب منه ١٢,٦٥ متر بينما يصل طول الجانب الواحد من قاعدة صومعة جامع حسان ١٦,١٥ متر.